أدب الرحلة:

1- تقديم :

ما من شعب في الماضي ولا في الحاضر إلا ، وعرف الرحلة والعرب كغيرهم من الشعوب عرفوها وازدهرت عندهم بداية من القرن التاسع الميلادي ، و قد ارتبطت بمواقع مؤلفيها ، فعكست اهتماماتهم ،إذ تنوعت النصوص الرحلية فأخذت أبعاد جغرافية ، وتاريخية، وسياسية واتسع الاهتمام بها حتى القرن الثامن عشر الميلادي.

وقد عرف الانسان العربي بشغفه بالرحلات وعالمها ، لذلك وجد كم هائل من النصوص الرحلة التي حوت مادة توثيقية هامة خاصة فيما يتعلق بصورة الأنا تجاه الآخر المرتحل إليه تخيل وواقعا.

2-تعريف الرحلة :

أ-لغة : جاء المعنى اللغوي للرحلة متقاربا في معاجمنا العربية ، فقد جاء في معجم المقاييس" رحل الراء والحاء واللام أصل واحد ، يدل على مضي في سفر ، يقال رحل يرحل رحلة، والرحلة الارتحال"[1].و أما ابن منظور فقد ذكر أن "رحل الرجل إذا سار، ورحل رحول ، وقوم رحل أي يرتحلون كثيرا ، ورجل رحال عالم بذلك ومجيد له ، والترحل والارتحال : الانتقال .والرحلة اسم للارتحال "[2]

نستنتج من هذه المساءلة اللغوية أن الرحلة تفيد معنى الاستعمال من مكان إلى آخر.وقد أشار القرآن الكريم إلى الرحلة من خلال سورة قريش.

ب-اصطلاحا :

الرحلة هي تسجيل للأحداث التي عاينها الرحالة بنفسه، وهي تختلف حسب ثقافة الرحالة وتصوراته عن الحياة والكون، وهي مزيج من الأخبار ، والأحداث، والوقائع تتداخل فيها الرؤى

---

[1]- **ابن فارس ، مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج2 ، ط 2 ، مادة (ر ح ل) ، دار الفكر، سوريا ، 1979.**

[2]- **ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق نخبه من الأساتذة ، دار المعارف ، القاهرة ج 3 ، مادة رحل .**

وتتعدد الخطابات لذلك فهي ثرية بمعارف متنوعة انفتاحها على جميع دروب الحياة.ويتحدث أحد النقاد عن خطاب الرحلة معرف إياه " بأنه عملية تنفيذ لفعل الرحلة " [3].

ويشمل هذا الخطاب على وصف الرحلة من خلال عملية الانتقال من مكان إلى آخر، ناقلا الكثير من المعارف الاجتماعية والسياسية والأدبية والتاريخية والجغرافية، وما تضمنه من أنواع أدبية ما يجعل خطاب الرحلة معقد.

و يحيل هذا الخطاب على مسألة غاية في الأهمية ، وهي تجنيس الرحلة فما هي هويتها ؟ هل هي أدب أم تاريخ؟ أم جغرافيا ؟ أم اثنوغرافية؟ إلى غير ذلك، فالرحلة منفتحة على حقول كثيرة لذلك عملية تحديد جنسها ليس من السهل تداولها ، فهي على حد قول أحد الباحثين " اقل الأجناس وضوحا ومع ذلك ، فهي تتميز بسمة ثابتة هي تفصيلها للنظر العقل، والأفكار، والفكر الخطابي وليس للخيال " [4].

يتكون خطاب الرحلة من معارفه وعروض و أوصاف وأشعار، ويتميز ب:

1-سيطرة موضوع السفر على موضوعه.

2-مركزية الذات.

3-الحكي بضمير المتكلم.

4-الأسلوب الواقعي.

5-دائرية الخطاب.

6-تداخل الخطابات وتنوع المضامين.[5]

---

[3]- سعيد يقطين السرد العربي مفاهيم وتجليات ،1 رؤية للنشر والتوزيع القاهرة ، 2006، ص 200.

[4]- محمد حاتمي ،في خطاب أدب الرحلة، مجلة فكر ونقد، عدد 87 السنة التاسعة ، مارس 2007، ص 52.

[5]- ينظر جميلة روباش:أدب الرحلة في المغرب العربي ،مخطوط رسالة الدكتوراه ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، 2015، من ص17إلى ص 19.

و الرحلة هي في كل الحالات تجربة يحياها الرحالة من أجل هدف فردي أو جماعي لغاية تحقيق منفعة مادية أو روحية ، ويتم السرد في الرحلة بضمير المتكلم ، وقد عرفها إنجيل بطرس بالقول ، هي: " التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدون وصفا له يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجه من الدقة ، وجمال الأسلوب، والقدرة على التعبير" [6].

" إن الرحلة العربية في وجودها ونموها تمثل عنصرا ثم شكلا خالصا ضمن دائرة مفتوحة على أنواع صغرى وكبرى،هي بناء يتناسل ويتشكل باستمرار مع بعض خصوصيات الرحلات الإنسانية.لذلك فإن الرحلة العربية يمكن النظر إليها بما تتوفر عليه من معطيات مكثفة بالمقارنة مع باقي الأشكال التعبيرية في التراث السردي العربي".[7]

تحتوي الرحلة العربية على عنصر التخييل الذاتي، فقد استفادت من الرسائل، والتراجم، والأخبار وفي هذه الأنواع الأدبية يبرز ضمير المتكلم ، فهو يتخذ كوسيلة لإبراز الذات والهوية .كما تتميز بالتنوع في الأشكال الرحلية ، والتنوع في الهوية الثقافية والاجتماعية لصاحبها الذي يمكن أن يكون أديبا أو مؤرخا أو جغرافيا أو مصنفا أو سفيرا، وبالتالي أن الرحلة ستطبع بهوية مؤلفها.

تصبح الرحلة بهذا المعنى" تأوي خطابات وطبقات قولية تتجه لأكثر من متلق مما يولد هذا الجدل الرمزي الذي يثري التأويل ويجعل من خصوصية الرحلة العربية مشهدا ينتمي إلى النفق الثقافي العربي ويختلف في بلاغة الأهداف المتوخاة في بعض المناحي" [8] .

و لم يتم التطرق في النقد العربي القديم إلى مسألة تجنيس الرحلة بدقة كما هي مطروحة اليوم وظلت الأجناس السردية ، فقد ظلت شبه غائبة عن لغة النقد لاعتبارات ثقافية ودينية ولغوية.وقد تطرق شعيب حليفي إلى إشكالية الأجناس في الأدب العربي القديم ، و قد جعل هذه الأشكال في قطبين كبيرين كان لهما حضور متبادل ومتواتر :وهما الشكل الخالص والهجين.(تضمنت الأشكال

---

[6]- إنجيل بطرس :الرحلات في الأدب الإنجليزي ، مجلة الهلال ، السنه 83 ، يونيو ،ص52.

-شعيب حليفي ، الرحلة في الأدب العربي ، التجنس آليات الكتابة ،خطاب المتخيل ، رؤية للنشر و التوزيع ،القاهرة ، مصر ،2008،ط1، ص9.[7]

-المرجع نفسه ، ص11.[8]

الخالصة المقامة ، والسيرة، والحكاية الشعبية، والرحلات.أما الأشكال الهجينة ويندرج ضمنها الخبر، والمحاكيات الصغرى المتفرقة ثم أدب القيامة ، والتراجم، والطبقات ، وأخبار الشعراء. ولا تنفصل هذه الأشكال الخالصة عن الهجينة ؛ إذ هما معا نسبيان يتفاعلان باستمرار مع المصنفات المدرجة ضمن ما أخضعه الفكر العربي للتصنيف [9].

و قد تحدث الدارس نفسه عن خصائص النص الرحلي في الإطار العام عندما توقف عند إشكال التجنيس (إن الأشكال الخالصة قائمة بذاتها تمكنت من خلال النصوص المتوفرة ذات النطاق الفني من التعبير عن مرحلتها ، وإفراز مجموعة من الخصائص المشتركة بينها فضلا عن خصائصها النوعية المميزة لها ولسماتها وحتى بعض أهدافها هذه الخواص يمكن اختزالها في ثلاثة مستويات:

-اللغة والأسلوب.

-هيمنه الفرد البطل.

المتخيل .[10]

سجل الدارس عدم اهتمام الكتابات العربية القديمة بالرحلة ويظهر ذلك في تسمية الرحلة نفسها فقد يطلق عليها: الرسالة ، أو التصنيف ، أو الكتاب، أو التقييد، أو التذكير بما يدل على وجود غموض في مسألة تجنيسها وغياب الوعي بها وتداخلها مع الأشكال الأخرى، وهذا يدل عليه كثرة التسميات واختلافها من عصر إلى آخر هذا كلامي" ذلك أن رحلة ابن فضلان سميت رسالة ابن فضلان من طرف المحقق الذي نعتها في تقديمه بالرسالة فيما اسماها ابن فضلان بالكتاب، ويلجأ محقق تحفة الألباب ونخبة الإعجاب لأبي حامد الأندلسي إلى وصف الرحلة مرة بأنها كتاب، ومرة أخرى بأنها تصنيف ورسالته ... أما أبو دلف فيؤكد في تقديم رسالته على العنوان والمتن، وهو المتعصب للأساليب والأشكال المقامية "[11]

---

[9]- **المرجع السابق ، ص 30/ 31.**

[10]-**ينظر المرجع نفسه، ص32/33.**

[11]- **المرجع نفسه ،ص 49 /50.**

انطلاقا من إشكالية التجنيس و التسمية و انتساب الرحلة إلى السرد و انفتاحها على حقول كثيرة يمكن القول أن هناك جدلا حول تحديد هوية النص الرحلي والمجال الذي ينتمي إليه ، وعلى الرغم من ذلك فإن عملية تجنيسها متوقفة على عناصرها ومكوناتها وآليات كتابتها ، و من هذا المنظور يعرفها شعيب حليفي و للاعتبارات السابقة بالقول " فهي نص لغوي محول قائم بعناصره ورؤاه يقود إلى التعامل معه نصا مفتوحا على خطابات متعددة مما يجعل مفهوم الرحلة " [12]

خلاصة هذا الكلام أنه مهما قيل عن الرحلة من ناحية انتسابها وتجنيسها فإن لها خصائص بنيوية مشتركة من أهمها : السرد، والوصف، وتعليق الأنا ، ويبقى إشكال الرحلة يتمثل في كونها عبارة عن نص مفتوح لقيام خطابها على طرفي طرفين هما الذات والآخر.

وتختلف وجهة نظر الكثير من الباحثين في عد الرحلة نوعا خالصا، فعبد الرحيم مؤذن يرى أن الرحلة" كتابه ملابسة سواء على مستوى الهوية الأجناسية، أو على مستوى محاورتها في سياق نظرية الأدب لأجناس أدبية وغير أدبية " [13]

ما خلص إليه هو أن الرحلة نوع أدبي تتجاذبه عدة أنواع أدبيه ما أدى إلى طرح إشكالية حدوده معها ، ولعل ما تتميز به الرحلة من احتوائها – إما على المستوى المضمون –معارف تاريخية وجغرافية، ودينية ، وأدبية ، و إثوتوغرافية ...أو ما تتميز به على مستوى الشكل من سرد ، و وصف و و حكايات و أخبار،و رسائل ،و أشعار هو الذي جعل منها نوعا أدبيا تلتبس مضامينه و أشكاله.

---

[12]- المرجع السابق ،ص42.

[13]- عبد الرحيم مؤذن الرحلة المغربية في العاشر- مستويات السرد واحد ، دار السويدي للنشر والتوزيع الإمارات، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن 2006 ، ص8.

وقد انعكست هذه الميزات على مناهج دراستها فنظرة المؤرخ إليها تختلف عن نظرة الجغرافي وتختلف نظرة هذا الأخير عن نظرة الأديب ، وهكذا مع الإثنوغرافي، والفلسفي ، والديني " بتنوع موضوعاتها جعلها قبلة لمنح المعلومات الجغرافية والتاريخية والشعرية والصوفية والاثنغرافية" .[14]

إننا نعد الرحلة نوعا أدبيا نجد فيها أساليب ، وتعدد الرؤى، و أنواع أدبية، وصور خيالية وحكايات وأخبار لذلك ، فهي أقرب إلى الأدب، ويمكن التعامل معها على أساس أنها نوع قائم بذاته له قواعد التي تميزه عن بقية الأنواع الأدبية الأخرى.

3–عدم اهتمام النقد العربي بالرحلة:

يفسر عدم الاهتمام بالرحلة وعدم اعتبارها أدبا بعدة أسباب منها علاقتها مع الجغرافيا وحقول أخرى ، واختلاف كتابها، ونظره محققو الرحلات إليها ، إذ اعتبروها مجرد مشاهدات، وهناك من عدها مجرد تسجيل للمشاعر والحوادث والمشاهدات منذ خروج الرحالة إلى عودته إلى بلده ، وهناك من نظر إليها جمع للمعلومات. وهناك من المحققين من لم يفرق بينها وبين الرسالة ، والتقييد ، والتأليف والمذاكرة ، وهناك من غلبت عليه الرؤيا المتمثلة في أن الرحلة ذات بعد جغرافي أكثر من أي بعد آخر لذلك صعب ويصعب تعريف الرحلة.

4–علاقة الرحلة بالأنواع السردية الأخرى : هناك مجموعة كبيرة من الأشكال السردية الموجودة في النص الرحلي من أهمها السيرة، والتراجم ، والتاريخ ، والجغرافيا، والسجل الاجتماعي ، والحكي والخبر، والشعر، والرسالة ، واليوميات " إن هذه الدائرة التي يتبع فيها النص الرحلي تخصب بنيتها وتتشكل بالعناصر الأولية الرئيسية بالإضافة إلى أشكال أخرى تندمج في بنية النص ، وتنصهر فيه ثم تسم الخطاب وترسم حدوده و آفاقه ، و تؤسس لدلالات مفتوحة تخلق نوافذ أخرى تكسر ما يجعل الدائرة مغلقة أو ذات تفاعل أحادي أو ثنائي فيتسع مستوى التلاقح والتخصيب ، وهو ما يسمح

---

[14]- عبد النبي ذاكر: عتبات الكتابة مقاربة لميثاق المحكي الرحلي العربي، منشورات مجموعة البحث الأدبي الشخصي ،المغرب 1998، ص 14.

بصعوبة القبض على تعريف يجمع في حده زخم الخصوصيات والتنويعات في النصوص الرحلية العربية"[15].

إن علاقة الرحلة بالأنواع السردية الأخرى تصعب من عملية التعريف لذا سجلنا غياب تعريف واضح و ذلك يعود إلى كثرة النصوص الرحلي ، وتنوعها ثم انفتاحها على الكثير من النصوص السردية الأخرى.

5-مكونات الرحلة: يتكون النص الرحلي من :

1-المؤلف الرحالة ، وهو شخص الذي ينتقل من مكان إلى آخر يصف ، ويدون طباعة مرجعياته الثقافية وهو راوي الرحلة لأنه منجزها الحقيقي.

2-السفر أو الرحلة، وهو الفعل المنجز وهو موضوع هذا النوع الأدبي " وهو العنصر المؤطر لكل العناصر والمكونات الأخرى، ومن النادر جدا وجود رحلة اقتصر فيها مؤلفها على هذا المكون فقط "[16].

3-الحكاية : وينتج عنها خطاب هو خطاب الحكاية " وهو عملية تلفظ لفعل الرحلة بعملية التلفظ هاته يختلف خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات المجاورة التي تقوم على أساس فعل الرحلة ولكنها تستثمر جوانب منها وتوظيفها في خطاب مختلف "[17].

6-أنواع الرحلات:

على الرغم من عدم اهتمام النقد العربي القديم بأدب الرحلة إلا أننا سجلنا وجود أنواع اختلف الدارسين المحدثين في عددها وماهيتها ، وسنكتفي بالإشارة إلى أهمها:

---

[15]- **الرحلة في الأدب العربي ، التجنس آليات الكتابة ،خطاب المتخيل ،ص 80.**

[16]-**جميلة روباش ، أدب الرحلة في المغرب لالعربي ، ص 15**

-

[17]- **سعيد يقطين : السرد العربي ،مفاهيم وتجليات ، ص 200.**

1-الرحلات الدينية: وتسمى بالرحلات الحجية أو الحجازية، وكان دافعها الحقيقي بيت الله الحرام ويوجد ضمن الرحلات الدينية نوع آخر هو الرحلات الزيارية والصوفية ، ومثالها الإشارات إلى معرفة الزيارات لأبي بكر الهروي (311 هـ-1215 م).

2-الرحلات العلمية: هدفها طلب العلم ، ومن أمثلتها الرحلات التي قام بها ابن خلدون ، و العبدري ، و البلوي...

3-الرحلات التجارية : و هي أقدم الرحلات ودافعها تجاري.

4الرحلات السياحية: هدفها الاكتشاف ترويحا للنفس ، ومثالها رحلات ابن بطوطة.

5- الرحلات الرسمية: وهي رحلة خاصة تكون بغرض تأدية مهام رسمية للدولة ، ويهتم الرحالة فيها بالكتابة عن الدول التي زارها ، ومثالها رحلات السفير محمد بن عثمان المكناسي، وأهمها: الإكسير في فكاك الأسير، و اليد السافر، و إحراز المعلى والرقيب.

و مهما كان عدد الانواع الرحلية فإنها كتبت في وضعيتين : إما بشكل محايد للرحلة ، وهو أمر قليل ولا يغطي كافة مراحلها كما هو الأمر بالنسبة لرحلة العبدري. أو أنها تدون كتابه بعد انتهاء الرحلة وحكيها شفويا مثال ذلك رحلة ابن بطوطة التي سردها بعد أزيد من ربع قرن من الارتحال هذه الوضعية تجعل الإدراك الفني للواقع موسم بآثار ومعطيات مترسبة في ذاكرة الرحالة المؤلف مهضوم فينهض النص الرحلي على صوره واقع يضمر بنيات متلونة متصادمة وأصوات مشبعة بأسرار ذاتية وأخرى غيريه "[18].

[18] **شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي ، التجنس آليات الكتابة ،خطاب المتخيل، صفحة 45**